

اللغة العربية بين الواقع والإدعاء

الأستاذ محمد محمد الزطاني

وما كانت لتعد مشاكل ونواقص تحول دون الخلق والتأليف والإبداع . وانما كان الغرض من خلق هذه المشاكل اثاره البلبلة بين ابناء هذه اللغة وبث الشكوك فيما بينهم ازاء هذه اللغة التي يعرفون هم انفسهم جيدا انها لغة تتوفر على جميع مقومات اللغات الحية المتطورة الصالحة لكل عصر ، ثم هم فعلوا ذلك متوخين القضاء عليها واحلال محلها لغة المستعمر الدخيل ، من هذه المشاكل التي اثرت على سبيل المثال ، مشكلة الحرف العربي ، مشكلة النحوي العربي ، مشكلة الشكل ، العامية والفصحى .. الخ .

ويجدر بنا ان نتوقف قليلا عند كل نقطة من هذه النقاط في محاولة معرفة هل هي حقا مشاكل حقيقية تعاني منها اللغة العربية ام ان لغتنا براء من هذه الادعاءات ؟

اما بالنسبة للحرف العربي فقد تعددت محاولات اصلاحه وتحسينه ولكنها باءت كلها بالفشل الذريع ، وظلت الغلبة للاشكال المتوارثة التي كتبت بها عشرات الآلاف من الكتب في مختلف الميادين العلمية والفلسفية والادبية .. وسواها ، قالوا ان شكل

لقد كثرت الدراسات ، وتعددت المناقشات في ايامنا هذه ، عن اللغة العربية وعن مدى قدرتها على استيعاب علوم العصر ، وتخوف فريق من عدم امكان اللغة العربية مسايرة هذا العصر المتطور المذهل . كما تحمس فريق آخر فابرز امكانات هذه اللغة مستشهدا بتجربة الماضي حيث بلغت اللغة العربية فيه في نقل العلوم وترجمتها شأوا بعيدا ، ولقد كثرت الكلام في هذا المجال حتى كاد يصبح حديث جميع المجالس والمنتديات في مختلف البلاد العربية ، فهل تعاني العربية حقا من هذا النقص ؟ وتعيش نوعا من العزلة لدرجة انها في حاجة الى دفاع ومناقشات من هذا القبيل ؟

واحقا للحق يمكن القول بأن اللغة العربية ليست في حاجة الى ارتداء درع الوقاية يحميها هجمات الكائدين ويرد عنها شماتة المفرضين ، اذ تؤكد كل الدلائل قديما وحديثا - ان هذه اللغة - كانت وما تزال لغة حية مكتملة الجوانب اللهم ما يريد ان يلحق بها بعض المتشككين من نعوت وعيوب كانت قد اثارها زمرة من المستشرقين الحاقدين في منتصف هذا القرن حيث أوجدوا موضوعات لم يكن لها وجود قبلهم ،

اسم الكاتب سلامة موسى في مصر الذي تحمس لهذه الفكرة وقدم تبريرات ومقترحات في شأنها يقول في هذا الخصوص : « هذا السخط الذي يتولانا كلما فكرنا في حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللفة لنا عن الرقى الثقافي ، تزيد حدته كلما فكرنا وادى بنا التفكير الى اليقين بأن اصلاحها مستطاع ، والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار اعم . ولذلك كلما نجد الشجاعة للدعوة الى الاصلاح الجريء الا في رجال نابهين لا يباليون بالجهلة والحمقى مثل قاسم امين ، او أحمد امين في الدعوة الى الغاء الاعراب ، ومثل عبد العزيز فهمي حيث يدعو الى الخط اللاتيني هو وثبة المستقبل لو اننا عملنا به لاستطعنا ان ننقل مصر الى مقام تركيا (!) التي اغلق عليها هذا الخط ابواب ماضيها وفتح لها ابواب مستقبلها » .

ولقد قدم سلامة موسى بعض المقترحات نجملها فيما يلي :

هذا الاقتراح يحتاج اولا الى الغاء الاعراب وميزاته :

اولا : الاقتراب من التوحيد البشرى لانه وسيلة القراءة والكتابة عند المتبرنين الذين يملكون الصناعة اى العلم والقوة والمستقبل . وهذا الخط تأخذ به الامم التي ترغب في التجدد كما فعلت تركيا ، ومن المرجح ان يعمم هذا الخط العالم كله تقريبا .

وثانيا : حين نصطنع الخط اللاتيني يزول هذا الانفصال النفسى الذى أحدثته هاتان الكلمتان المشؤومتان : شرق وغرب ، فلا تتغير من ان نميش العيشة العصرية ولان يجبر هذا الخط في اثره كثيرا من ضروب الاصلاح الاخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمى والعقلية بل النفسية العلمية ايضا ، الخ .

وثالثا ورابعا وخامسا :

وسادسا : اننا عند ما نكتب بالخط اللاتيني نجد

الحرف الراهن وتركيبه لا يتفق والعصر ، وأن رصف صفحة بالخط الفرنجى يعادل في الزمن رصف صفحتين في الخط العربى لتزايد عيون الحرف العربى التى تتعدد وتتغير بتغير مواقعها في الاول أو الوسط أو الآخر وهكذا .. فقدم لنا كثير من الباحثين اشكالا متباينة لخط جديد تشبه الى حد بعيد رسوم الخط الفرنجى ، غير أن القارئ العربى يكتشف منذ الوهلة الاولى انها في غالبيتها اشكال غريبة عليه يجها ذوقه العربى السليم ، بل انها في بعض الاحيان تكلفه عناء شديدا في هجاء حرف واحد منها ! والحقيقة التى تتضح بعد ذلك هى أن جمالية الخط العربى او حرفه لا تبارى « فقد ثبت الآن أن الحرف العربى حرف مثالى في جمال تكوينه وشكله وتنوعه والتوائه واستوائه وتعريجاته واختصاره ، وأن الصفحة الواحدة من الكتاب العربى لو كتبت بالحرف اللاتينى لاحتاجت الى صفحتين على الاقل ، فالكتاب المؤلف من مائة صفحة بهذا الخط الجميل لا يمكن رصفه بأقل من مائتى صفحة بالحرف اللاتينى ، ثم ان تطور الطباعة اليوم يتجه اتجاها سريعا نحو اللوتيتيب والمونوتيب . ومعنى ذلك هو العدول بالتدرج عن اسلوب الرصف الحرفى واختصار القوالب الى نحو 160 فقط ، وقد توصل بعض العلماء الى ابتكار رسم حديث للحرف العربى لا يخرج عن شكله ولا يبعده عن اصله ولا تزيد قوالبه على المائة والامل قريب بتوفيق جامعة الدول العربية الى حل مشكلة الحرف حلا سريعا وموضوعيا تسهل به الكتابة على الراقنة وفى المطابع بحيث تسقط دعوى الداعين الى الحروف اللاتينية وينعقد خصومنا معركة » (1) .

حقا انه لمن السخف أن نجد بين ظهرانينا من تسمح له نفسه بالدعوة الى استبدال الحرف العربى بالحرف اللاتينى متخذين مما ابتدعه مصطفى أتاتورك للغة التركية مثلا يحتذى وكذلك بدعوى السهولة واليسر وضبط الكتابة وابرار حركات الحروف ، وهذه دعوى باطلة من اساسها تحمس لها بعض ذوى النيات السيئة من اعداد هذه اللغة عربا كانوا ام اجانب ، ومن بين المفكرين الذين تحمسوا لهذه الدعوى ذوى الثقل الخاص في العصر الحديث يذكر

(1) انظر مجلة « اللسان العربى » المجلد التاسع الجزء الاول ص 9 . ضمن مقال ثورية التعريب للاستاد عبد العزيز بنعبد الله :

أن تعلم اللغات الأوروبية قد سهل أيضا ، ففتح لنا آفاق هي الآن مغلقة (2) .

ويختم سلامة موسى هذه المقترحات بالتساؤل التالي : « وبالجملة نستطيع أن نقول أن الخط اللاتيني هو وثبة في النور نحو المستقبل ، ولكن هل المناصر التي تنتفع ببقاء الخط العربي والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟

إن القارئ الكريم يلاحظ — لا شك — كم في هذه الدعوة من مغالاة كما أنه يتبين له ولا ريب أنها لا تستند إلى أساس سليم تبنى عليه وإنما هي دعوى تخريب أكثر مما هي دعوة بناء ، فهي بالتالي دعوة باطللة كغيرها من الدعوات المشبوهة التي لا ترمى سوى إلى تشتيت التراث العربي وتشويهه ، ولقد حاق بدعوة سلامة موسى فشل ذريع كما باعت بالفشل دعوات غيره من أمثال أمين شميل ، وعبد العزيز فهمي وقبلهما الدكتور سبيتا ، وويلمور ، ووليم ويلكوكس ، وغيرهم من المفرضين . « وظلت السيطرة للحرف العربي » ثم ماذا كان سيفعل هؤلاء في كثير من الحروف العربية التي لا تجد لها رسما سوى في النطق العربي كحروف : الحاء ، والفاء ، والعين ، والذال ، والضاد ، والطاء ، والقاف ، والثاء ، والهاء .. الخ . ثم ماذا سيكون موقفهم من التراث العربي المكتوب بحروف عربية ؟ وهكذا وثدت هذه الدعوة في مهدها .

نتقل بعد ذلك إلى مسألة النحو العربي ، إن النشأ من متعلمي اللغة العربية يتكون من صعوبة نحوها ، والحق أنه ما من « نحو » في أي لغة من لغات الأرض إلا ويعاني أصحابها من هذه الشكوى . ولقد أصبح « نحو » اللغة الألمانية مضرب الأمثال في الصعوبة والتعقيد على أن قواعد العربية ليست أشد صعوبة من هذه اللغة أو تلك ، يقول الدكتور : محمد كامل حسين في دراسة قيمة له عن النحو العربي : « والواقع أن قواعد اللغة العربية بسيطة جدا يمكن الإلمام بها بعد درس غير مرهق ، ولا يحتاج المتعلم بعد

ذلك إلا إلى المران على تطبيق هذه القواعد الشاملة فيستقيم بذلك لسانه دون عناء كبير (3) . إن الخطا الفادح الذي يقع فيه مخطوطو مناهج التعليم عندنا كونهم يلغنون القواعد في صورتها الجافة قبل النصوص ، في حين أننا نجد أن القائمين على مناهج التعليم في المدارس الأوروبية على اختلافها يعيدون التلميذ على التعامل مع النص — في المقام الأول — فهو يقرأ ويميد ويحفظ من غير أن يكون ذا الملم واسع بعلم النحو ، ثم يطبق — بعد ذلك ما قرأه على القواعد ، فإذا أردنا الخروج بنحونا من صلابته وجفوته علينا أن نكثر في المراحل الأولى من مناهج تعليمنا من النصوص وما أغنى لفتنا العربية بشتى أنواع هذه النصوص على اختلافها ، فالتعامل مع النص يكسب الطالب أو المتعلم سليقة فطرية ويعوده بطريقة تلقائية على اشكال الحروف وبنائها وتراكيبها وتعدد أساليبها ، والتاريخ العربي يقول لنا أن النص سابق للنحو ، فقد وجدت النصوص منذ كانت العربية ، أما النحو « كعلم قائم بذاته » فلم توضع مبادئه إلا في زمن متأخر جدا أي في القرن الأول الهجري أيام علي بن أبي طالب ، وكلنا يعرف قصة أبي الأسود الدؤلي مع ابنته وغيرها من القصص التي تروى في مجال سبب وضع النحو العربي .

لقد كانت العرب إذن تنطق بالسليقة ، ولا تخطيء أبدا في كلامها من غير أن تعلم لماذا كان الفاعل مرفوعا ولا المفعول منصوبا ، كما أن كثيرا من علماء العربية وواضعي معاجمها المشهورة كانوا يقصدون الأعراب في البوادي حيث العربية سليمة نقية غير مشوية فيأخذون عنهم النطق الصحيح ، ومعروف عن الزمخشري هذا حيث أنه في « أساس بلاغته » كان يؤم البوادي العربية ويسجل المعاني المستعملة عندها وهكذا الشأن مع باقى لغوى العرب .

إذن فالشكوى من النحو هي شكوى من قواعد الجافة الموضوعة في قوالب مملدة شأنها شأن القوانين الجامدة ، أما اللغة العربية فالدليل قائم — قديما وحديثا — على أن المران والمتابعة والممارسة كسل أولئك يكسب الدارس لها مهارة فائقة على التركيب

(2) سلامة موسى ، البلاغة العصرية واللغة العربية ص 109 . نقلنا عن اللغة العربية وعلوم العصر ، للدكتورة بنت الشاطيء « اللسان العربي » المجلد الرابع عشر ج 1 ص 15 .
(3) مجلة « مجمع اللغة العربية » القاهرة ، فبراير 1971 ص 26 .

السليم والنطق الصحيح ، وكم من متعلم أو كاتب لم يدرس القواعد قط ومع ذلك يستطيع أن يكتب ويؤلف نتيجة الممارسة والقراءة المتواصلة ، ألم يقل الشاعر :

ولست بنحوى يلوك لسانه
ولكن سليقى أقول فأعرب

القول المعرب إذن قوامه القراءة الكثيرة والخوض في النصوص وهذا ما نرجو أن يتم في مناهج دراستنا أي مضاعفة حصص النصوص ، وبالمقابل حسن اختيار القواعد ، وأنطلاقاً من النص ودراسته نستنتج القاعدة التي بنى عليها هذا النص ، وهذا مغناه التطبيق الفعلي للدراسة النظرية .. فأنت قد تتعلم أي علم من العلوم أو أي فن من الفنون ، الطب السياسة ، الخيالة .. الخ في حجرة مغلقة تدرس قواعد هذا الفن أو ذلك العلم ولكنك في الحقيقة لن تفيد شيئاً إلا إذا طبقت ذلك بطريقة عملية فتكسب من ثم مهارة التطبيق مع حسن النظر والدرس .

وكم هي محاولات تبسيط النحو العربي التي تقدم بها كثير من الدارسين في مختلف البلاد العربية غير أنه ظل ما يقدمونه حبراً على ورق ميثوناً في مختلف أدرج المؤسسات اللغوية العربية دون أن يغير شيئاً من المشكلة القائمة ، الحل إذن يكمن في محاولة الإكثار من النصوص بما يتلاءم ومستوى المتعلم ..

أما مسألة الشاذ في اللغة الذي يخرج عن المألوف والاستعمال يظل صورة متخفية لنطق بعض القبائل العربية القديمة لا ينبغي أن نأخذ به ، فالشاذ أو النادر لا حكم له كما يقال . وتنبثق عن مسألة النحو العربي مسألة أخرى يرى فيها البعض مشكلة قائمة بذاتها لا تقل أهمية عن غيرها من المشاكل التي تعاني منها اللغة العربية ، وهي مسألة « الشكل » شكل الحروف العربية تقادياً للغموض واللبس والإبهام وتعدد المفاهيم . وهناك اتهام مشهور يوجه لإنشاء اللغة العربية — في هذا الصدد — وهو أنه حتى كبار دارسيها يحارون أو يتعثرون في بعض الأحيان عند قراءة نص من النصوص العربية بخافة الخطأ أو

اللحن ومن أجل شكلها شكلاً صحيحاً . على حين أننا نجد القارئ الفرنسي — مثلاً — حتى وإن كان دون مستوى مرحلة البكالوريا يقرأ النصوص في لغته بطلاقة من غير أن يرتكب خطأ واحداً ، وهذه من أخطر الاتهامات التي توجه للفتنا ويرى فيها الباحثون رأيين الأول يقول : إن اللغة العربية ليست صعبة كما يدعون ، بل إن النقص كامن فيمن لا يجيدها حق الإجابة ، وإذا كان المرء عالماً بأصولها ، مطلقاً على أسرارها ، دارساً لقواعدها ، ملماً بأساليبها ، فانه لن يخطئ أبداً ! في حين يذهب الرأي الآخر إلى عكس هذا على الإطلاق فيقرر أن العربية فعلاً تشكو من هذه النقيصة ، فيما يخص شكل الكلمات على الأقل ، حقا هناك كلمات يحار المرء في قراءتها القراءة الصحيحة وقد يقرأها على غير حقيقتها . وهناك أخرى يمكن نطقها على خمسة أو ستة أوجه ، وهذه مشكلة في حد ذاتها ولكن كما أسلفت مع المران والقراءة المتعددة وتتبع السياق كل ذلك يساعد على تقادي أمثال هذه الأمور التي لم تحل أبداً دون التأليف والخلق والإبداع المستمر على امتداد تاريخ العربية الحافل بجليل الآثار في كل علم . وبخصوص « الشكل » اقترح بعض الدارسين ضرورة الزام الحركات مع الكلمة بتصويرها في آخرها بحيث تشكل حرفاً جديداً قائماً بذاته ، في حين اقترح آخرون كتابتها بإزاء كل حرف على غرار الحرف اللاتيني !

وقد بذل بعض العلماء العرب محاولات موفقة في هذا الصدد ، فقد وضع بعضهم رسومات للخط العربي لا يتطلب الطبع بهذه الحروف الجديدة سوى إلى تسعين حرفاً في حين كان يتطلب الطبع بالحروف العربية العادية بالشكل التام خمسة وسبعين وأربعمئة حرف من الحروف المحززة (التي حازرت لتتراكب وتتداخل) وما يزيد على ثمانمئة حرف من الحروف الغير المحززة « (4) » .

وقد طبقت بعض هذه النماذج في بعض الكتب والصحف المغربية فلاتت اقبالا واستحسانا وهي لعمري حروف مقبولة لا غبار عليها ، من أهم مميزاتها الزامها الشكل في جميع الحالات ، ثم هي لا تغير من صورة الحرف العربي ولا تنقده جماليته .

(4) انظر الرسم النموذجي لمشروع اصلاح الطباعة العربية (اللسان العربي) ، المجلد التاسع الجزء الاول ص 218 بتاريخ 1972 ، للاستاذ أحمد الأخضر غزال .

النظر وتبادل الرأي في أمور كان ينبغي تفاديها منذ نصف قرن كأننا نحى لغة مواتا وكان لم يكننا دليلا شهادة أربعة عشر قرنا من الزمان (على حد قول ماسنيون) برهنت فيها اللغة العربية بأنها كانت دائما لغة علم بل وقدمت للعلم خدمات جليلة باعتراف الجميع كما اضافت اليه اضافات يعترف لها بها العلم الحديث ، فهى اذن لغة غير عاجزة البتة على المتابعة والمسايرة والترجمة والعطاء بنفس الروح والقوة والفعالية التى طبعتها على امتداد قرون خلت ، ويتضح لنا بالتالى ان ما ندعيه مشاكل في اللغة العربية ليست سوى حواجز يضمها الحاقدون عثرة في سبيل اللغة ويختلقها الناقمون على تراثها وحضارتها ، ولا أجد ما أختتم به هذا العرض خيرا من كلمة الدكتور عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء ، التى تقول : « واذا كانت العربية قد صمدت لكل هذه الحملات الضارية التى جاعتها من الاجانب الغريباء ومن اينائها المفترسين ، تجارينا باللهاجات العامية حيننا وبالخط اللاتينى حيننا آخر ، وتتهننا بالبداءة والعقم فتعزلنا عن الميدان العلمى لتظل نائية بها عن روح العصر ، اتقول اذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلانها دون ريب تملك القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، مما قاومت به محاولات المسخ ورمضت نبوءة المتبئين لها بالموت » (6)

وحرار قوم في هذا العصر في استعمال الفصحى ام العامية ؟ ولقد تعددت الدراسات في هذا المجال بين مؤيد للعامية متمصب اعمى لها بدعوى التبسيط والسهولة واليسر ، وبين مستمسك بالفصحى لا يرضى بها بدिला ، والحقيقة التى اثبتتها السنون ان الغلبة دائما كانت للفصحى ، على الرغم من كيد الكائدين فكم من كاتب نادى وتحمس بل وكتب ووضع تعابير خاصة للعامية (5) قصد نشرها وتميمها في محاولة القضاء على الفصحى ، والغرابة ان هؤلاء الذين كانوا متحمسين للعامية عادوا جميعا يكتبون بلغة عربية فصحى ناصعة صافية نقية سليمة وفي فترة ما من فترات حياة ادبنا الكبير المرحوم محمود تيمور كان قد تحول عن الفصحى الى العامية بل انه كتب قصصا بها غير انه سرعان ما عاد ، كاتبا عربيا مبينا بل ومتحمسا كبيرا للفصحى ومدافعا عن لوائها كعضو بارز في مجمع اللغة العربية بالقاهرة احد اعرق معاتل الدفاع عن الفصحى وتراثها .

ان العالم يركض ويجرى من حولنا والحضارة تتذف الينا بعشرات المصطلحات يوميا ، والاختراعات تلو الاختراعات تترى في حياتنا المعاصرة . . والسنون لا ترحم ، تطوى بعضها طيا ، ونحن ما زلنا نطيل

(5) انظر كتاب : سلامة موسى البلاغة العصرية واللغة العربية ص 75 . عن بحث الدكتور عائشة الشاطيء المشار اليه سابقا .

(6) اللغة العربية وعلوم العصر (بنت الشاطيء) من كتاب المؤلفة « لغتنا والحياة » .